الاثنين ٦ / ١ / ٢٠٠٣

أسبوعيات نائب

قافلة فتح عند بئر ماء :

من محطة لبنان ومحطة تونس إلى مرحلة حزب السلطة الوطنية

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

تذكرت وأنا أقف على شرفة المجلس التشريعي الفلسطيني بغزة، قبل بداية الاحتفال المركزي بالذكرى الثامنة والثلاثين لانطلاقة حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح، وجوها غابت يستعيد المرء ملامحها ولمحاتها في حركاتها وسكناتها بكثير من الافتقاد والحنين. رحمهم الله وغفر لهم؛ وجعل أعمالهم في النضال كفارة عنهم؛ وجعل الجنة مستقرهم وقد رضي عنهم ورضوا عنه.

ووسط ضجة الموسيقى والجموع التي بكر بعضها إلى الساحة وظهرت جموع غيرها قريبا وبعيدا، تلاميذ مدارس وموظفين وعمالا ورجالا ونساء من مختلف الأعمار والأوساط، عاودتني الأفكار التي تراود إنسان قافلة توقفت عند بئر ماء تستقي دون أن تفك رحال الإبل، إذ ما زالت الرحلة طويلة، والأخطار متربصة، وبعض القافلة قريب وبعضها في الضباب وبعضها لا تدري لعله وقع في الأسر ؟!

لقد فجرت حركة فتح ثورة أقل ما يقال فيها أنها أطول ثورة معاصرة في العالم. وتمكنت من قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية منذ عام ١٩٦٨، حين أصبحت لفتح الأكثرية في المجلس الوطني واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير وفي بقية أطر المنظمة. وكانت معجزة فتح هي معجزة شعبها : أعني معجزة القدرة على الحياة والمقاومة على الرغم من عدم وجود الشروط الأساسية المألوفة التي اصطلح مفكرو الثورات على القول بلزومها لوجود الثورات ولاستمرارها. نعم : إن قدرة الظاهرة على الانبعاث والمقارعة ثم الاستمرار، في حين أن ذلك يتجاوز الشروط والتطلبات المعهودة، يعد في حد ذاته دليل عظمة نادرة. بل ودليل شيء من الإعجاز. وقد قال هوشي منه ذات يوم : إن الثورة الفلسطينية ثورة عظيمة لأنها تقوم في منطقة حساسة من العالم، تتكالب القوى الإمبريالية الضخمة على مقدراتها وترصد ما يجري فيها بمنتهى اليقظة. وهذا وجه للعظمة جلاه القائد الفييتنامي الكبير الذي نظر إلى الثورة الفلسطينية من زاوية الاستراتيجيات العالمية.

معجزة النشوء

معجزة الثورة الفلسطينية أنها ثورة نشأت في المهجر دون أن تكون لها أرض تقف عليها. وقيل إنها الثورة المعلقة، وقيل إنها الثورة المستحيلة، وقيل.. وقيل.. أما معجزة شعبها فهي أنه صارع؛ ويصارع دون أن تتوفر له قاعدة آمنة ولا إمداد مضمون ولا خريطة اجتماعية واضحة. وبدا في كثير من الأحيان أنها افتقدت استراتيجيتها لمصلحة تكتيكاتها.

تشكلت النواة الأولى من فتح في خمسينيات القرن العشرين من شبان متعلمين، تخرج معظمهم من الجامعات، والتقوا ـ على معرفة سابقة أو لاحقة ـ في بلدان عربية نفطية شقيقة. وكانوا جميعا قد خاضوا تجارب تنظيمية في جماعة الإخوان المسلمين أو حزب البعث العربي الاشتراكي أو حزب التحرير الإسلامي أو الأحزاب الشيوعية أو غيرها، ولكنهم هجروها بسبب ما رأوه قصورا من القيادات الحزبية في النجاح بتجسيد ظاهرة نضالية محسوسة على أرض فلسطين تماثل الثورة الجزائرية التي قارعت استعمارا استيطانيا فرنسيا وقدمت في سبيل التحرير مليون شهيد. ففي أوائل الستينيات كانت الثورة الجزائرية ونظرية حرب العصابات وحرب التحرير الشعبية طويلة الأمد تتربع على قلوب الجيل الفلسطيني الشاب. وكانت لأبرز اثنين من مؤسسي فتح علاقة بمبادرات قتالية سابقة بالإضافة إلى خلفياتهم التنظيمية : فياسر عرفات خريج كلية

الهندسة بجامعة القاهرة وجد طريقه منذ أيام الدراسة الجامعية إلى دورة عسكرية ربطته بالجيش المصري ضابط احتياط متطوعا لمحاربة القوات البريطانية في قناة السويس. وخليل الوزير بادر إلى عمليات تفجيرية ضد هدف أو أكثر من هدف إسرائيلي إلى الشمال من قطاع غزة. وبالإضافة إلى ذلك كان تشكيل تنظيم المقاومة لدى احتلال القطاع أول مرة عام ١٩٥٦ تجربة تدريبية وإلهامية ذات مغزى بالنسبة إلى شبان عديدين من جيل التأسيس الذي انخرط آنذاك في نشاط المقاومة. وعموما كانت قدرة النواة الأولى في فتح على استقطاب شرائح ذات خلفيات عقيدية مختلفة من الشباب الطلائعيين دليلا على تشبعها بالشعور بوحدة الشعب العربي الفلسطيني وتمثلها هذا الشعور، كما كانت في الوقت نفسه تعبيرا عن سعة أفق وسعة صدر وبراعة سياسية قلما تتوفر لغير الكهول.

من الكلام إلى الفعل

وإذا كانت الثورة الجزائرية التي شنت منذ بدايات عقد الخمسينيات حرب عصابات ضد الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر قد أصبحت أمثولة عربية باسلة شاع ذكرها في الإعلام (المصري خاصة)، فإن أعمال الفدائيين الفلسطينيين التي حركها ضباط الاستطلاع التابعون لجهاز مخابرات عبد الناصر في قطاع غزة، قدمت للأجيال المعبأة بفكرة حرب التحرير أمثولة فلسطينية قريبة.

ولو أن حركة فتح جمدت طويلا واكتفت بعد إقامة الإطار التنظيمي التمهيدي بممارسة الكلام والنشاط التعبوي أو الإعلامي لظلت محدودة الأثر، شأن الكثير من الجبهات والحركات والكتل التنظيمية التي تشكلت على نحو مدهش في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، في الأقطار العربية النفطية كما في البلدان العربية المحيطة بفلسطين. غير أنها، خلافا لتلك الكيانات السرية أو شبه السرية، كانت مدركة بعمق أن مرحلة الكلام انتهت وأن الشعب العربي الفلسطيني يعير الكلام أذنا غير واعية وإنما ينتظر العمل. وهكذا اتخذت قرارها بالبدء في العمل، وذلك في حد ذاته إنجاز تنظيمي أساسي، تلاه على الفور تأسيس مكتب الحركة في الجزائر، وهي آنذاك الدولة العربية الأقرب عهدا بالثورة والنضال المسلح، والمستعدة لاستضافة ثوار فلسطينيين يقولون إن الثورة الجزائرية هي بالنسبة إليهم قدوة ومثال. كما استطاعت فتح في تلك الآونة أن تحصل على موافقة حكومة القطر العربي السوري على إقامة قاعدة تنظيمية وقتالية على الأراضي السورية، وذلك بوجود تنسيق معين بين الحكومتين الجزائرية والسورية. وبهذا استكملت فتح شروط انطلاقة العمل وأنجزت إنجازها العملي الأساسي، وصار بوسعها أن تطلق عمليتها العسكرية الأولى في ١ / ١ / ١٩٦٥. ومن هنا فرضت نفسها على الساحة فصيلا متميزا مع تنظيم أبطال العودة التابع لحركة القوميين العرب وجبهة التحرير الفلسطينية. وكان هذان التنظيمان أبرز ما أفرزته الساحة الفلسطينية في ذلك الأوان.

معركة الكرامة

أما القفزة النوعية لفتح ولبقية التنظيمات فجاءت في أعقاب حرب ١٩٦٧. وكانت تلك البرهة بمثابة بداية مرحلة جديدة، نابت فيها المنظمات عن الجيوش العربية في التصدي للإسرائيليين الذين ما كادوا يرفعون أصواتهم بالتفاخر بانتصارهم المدوي، حتى فوجئوا بمن ينغص عليهم تلك الفرحة ويبرهن لهم على الأرض أن المعركة ظلت مستمرة. وسارع الإسرائيليون إلى محاولة إجهاض المرحلة والقضاء بضربة واحدة على الظاهرة التي بدأت تضرب لها جذورا في الأغوار الشرقية، على أمل اقتلاعها دفعة واحدة نهائية في معركة الكرامة. فلما فشلت الحملة الإسرائيلية المدرعة المعززة بالطيران في تحقيق ذلك، ومنيت بالخسائر التي لم تكن في الحسبان، واضطرت للانسحاب وهي تجر أذيال الخيبة، بات واضحا أن هذه الثورة الفلسطينية الناشئة ولدت لتبقى لا لتندثر. ومن هناك امتدت ساحة المعارك إلى سوريا ولبنان. ويجب أن لا يفوتنا القول فورا إن الغرب الذي أقام إسرائيل سارع إلى تكثيف تداخله في المنطقة بغرض الحيلولة دون الظاهرة الفلسطينية وانتشارها في أوساط الشباب العرب. ولعبت الولايات المتحدة بخاصة أدوارا مضادة شديدة التأثير على مسيرة الثورة الفلسطينية.

من الديماغوغية أن يقول أحد بعد ذلك إن الثورة راحت تنتقل من نصر إلى نصر حتى دخلت الوطن محررة في ثياب الفاتحين. فالثورة تعرضت طوال ربع قرن من ١٩٧٠ إلى ١٩٩٤ لمعارك لا نهاية لها، بعضها معارك مقصودة وبعضها مفروضة. وفي ربع القرن هذا أثمرت جهود الأجهزة السرية الغربية، لا سيما محور الشر الحقيقي المتمثل في السي آي إيه والموساد، ثمارا شيطانية، نجم عنها انخراط العالم العربي في حروب موضعية وأهلية استنزفت طاقات الجميع وأعانت إسرائيل على استكمال بناء قواها النووية وقواعد اقتصادها ومجهوداتها الاستيطانية الاستعمارية في القطاع والضفة الغربية. ويجب لدى كل مراجعة ناقدة لتاريخنا أن لا ننسى دائما قصورنا الذاتي ونصيبنا من ارتكاب الأخطاء بل والموبقات أحيانا، بحيث نوزع تبعة الفشل على نحو موضوعي بين ما يفعله العدو بنا وما نفعله نحن بأنفسنا، ولا نلقي بالتبعة الكاملة على الأعداء أو على سوء الحظ،فعندما نفطن إلى ما ينقصنا نتعلم من التجربة الماضية ونشرع في تغييره وهكذا نغدو أقدر على الفوز في مرة قادمة.

أمجاد ومخازي !

ومن أبرز أوجه النقد التي ينبغي أن نوجهها لأنفسنا ذلك التفريط الذي تلا مرحلة التأسيس الأولى في اختيار نوعيات العناصر المنتمية للثورة. فلم يرافق التوسع في حجم التنظيم والقوات انتباه حقيقي لاختيار العناصر وانتقائها. وغلبت على الاهتمام الاعتبارات العددية التنافسية مع الأطراف الفلسطينية الأخرى. كما أن القيادة ـ تحت تأثير ضغوط لا تنكر ـ انخرطت مبكرا في اتصالات سياسية دولية بعضها ظاهر وبعضها خفي، وذلك على حساب الجهد الذي كان يجب أن يتركز آنذاك على العمل العسكري. وهذا يقودنا بالمناسبة إلى تركيز السلطات في يد واحدة وما أدى إليه من محدودية القدرة على تطوير القوات والعمليات. ويقودنا ذلك أيضا إلى تناقص الاهتمام بالمسلكية النظيفة، وإلى هجر مبدأ العقاب لدى ارتكاب المخالفات ثم ارتكاب الجنايات، وهكذا استفحلت في جسم الثورة، في غمرة أيام الحروب والمعارك والمواقع ـ وما أكثرها ـ، ظواهر التجاوز وإساءة العلاقة بجمهور البلدان المضيفة، ما ساعد الحكومات المتطلعة إلى اصطياد أي شيء يدمر سمعة الثورة على أن تجد مادة خصبة بقدر ما يشتهي خيالها، وتوجه بالتالي سهامها المسمومة إلى ظهر الثورة الفلسطينية.

وفي حين ينبغي أن نتذكر، إنصافا، اتساع مدى انتشار مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في العالم خلال ربع القرن الذي نتحدث عنه وما عناه ذلك من إنجاز إيجابي واعتراف عالمي بالكيان الفلسطيني الذي اقترب من مرحلة التأهل للدولة من وجهة نظر العديد من الدول، يجب أن نذكر ـ إحقاقا للحق ـ أن التوسعات في الأجهزة السياسية والعسكرية على حد سواء، رافقها أسوأ مستوى متصور في الإدارة والأداء الإداري، دون أن يكون لذلك سبب غير الإهمال وقلة التركيز وغير الانغماس حتى الأذنين في الوقائع اليومية المزدحمة.

لكن أهم نقد يوجه للثورة في مسيرة الربع قرن التي تلت برهة الأغوار هو السماح بنشوب المعارك والانقسامات إلى ما لانهاية في الساحة الفلسطينية التي لم تكن في كثير من الأحيان إلا شوارع بعض البلدان العربية المضيفة وأحياؤها. ونشير طبعا إلى ما حدث بصورة خاصة من تجاوزات في الأردن وفي لبنان ونتذكر بقلب مثقل مخازي أيام الحرب الأهلية في لبنان، وبيروت بصورة خاصة. وقد كانت تلك الحرب مشؤومة جدا بالنظر إلى تعريضها شرائح من المقاتلين الفلسطينيين إلى إغراءات لم يكن القدر من التوجيه الذي تلقوه ليساعدهم على التغلب عليها.

الاختبار الكبير

هذه خواطر نقدية سريعة للمسيرة التي حفلت مع ذلك بكثير من الأمجاد والمفاخر. غير أننا من أولئك الذين يهتمون للنقد أكثر من اهتمامهم للتقريظ. وذلك حبا وإخلاصا للمسيرة التي يتملقها البعض تعويضا عن نقص في إخلاصهم وحقيقة ولائهم.

وأنا من الذين يعتقدون أن حركة فتح بحاجة إلى مراجعة شاملة لمسيرتها. وأعتقد أيضا أن تلك المراجعة يجب أن تبدأ من برهة لبنان لتمر بعد ذلك ببرهة تونس، ثم الفترة الحالية التي أصبحت فتح فيها حزب السلطة، وما أصعب أن يتعرض إطار تنظيمي لمثل هذا الاختبار الكبير. فهنا يلتصق البعض بفتح لا لكي يحتضنها ولكن لكي يعتصر ما يمكن أن تعطيه من امتيازات.

وأولئك الذين مدوا أيديهم في لبنان إلى مال اللبنانيين أو إلى المال العام وأولئك الذين تعلموا هناك فرض الخاوة على المتاجر والكازينوات كان يفترض أن يدقق في أمرهم وأن يجري حسابهم قبل أن يكون هناك خطر تكرار الأمر في مناطق السلطة. والأساليب القيادية التي تعتمد على الانطباعات الشخصية المكتومة والولاء الشخصي في تقريب المقربين، وعلى السكوت عن الولاءات المزدوجة لكي لا تغضب بعض المراجع العربية، ولكي لا تظن المراجع المعادية أن لدينا الكثير مما نخفيه عنها..! والأساليب التي يتبعها البعض في وضع حسابات المال العام بأسمائهم الشخصية وفي تدوير المال العام في حسابات وصفقات مجهولة الأطراف مجهولة المصير.. وأساليب الإدارة التي ما زال لها وجودها في مؤسسات السلطة والتي تنتمي للقرن التاسع عشر.. والأساليب المستحدثة في تكوين عشائر جديدة مكونة من الأقارب والأنسباء والجيران وأولاد الحارة وذلك على حساب مال السلطة في بعض الوزارات والأجهزة والأساليب التي تعتمد على تكرار الحيل التكتيكية المكرورة المحفوظة عن ظهر قلب.. والأساليب المعمول بها في تسليم مرافق عامة إلى جباة وموردين يوزعون الأنصبة على من يحلو لهم.. كل ذلك يسيء إلى أهله ويسيء إلى حركة فتح التي قد تدين لبعض قادتها بدين ما، ولكن دينها الأكبر هو للشهداء الذين دفعوا ثمنا أعظم وأكرم، وهي بالتالي ملك شعبها وتضحياته الرائعة.والحفاظ على تاريخها حفاظ على هذه المعاني المقدسة كلها.

وتراودني الخواطر وأنا أقف على شرفة المجلس التشريعي بغزة، أشاهد حولي بعض الأنبياء وكثيرا من فاقدي الضمير ومتعهدي المناسبات لقاء أجر معجل أو مؤجل. بيد أن خاطرة قوية تغلب على تفكيري ورؤاي : هذه الأجيال الجديدة التي تدخل الساحة.. إنها تشبهنا حينما كنا في مثل يفاعتها وكنا نهرع في المناسبات الوطنية إلى ساحة الجندي المجهول.. فتية لهم قضية يشعرون بقوتها ويلتزمون بالولاء لها.. فتية سيظلون يلتمسون طريقهم إلى تحقيق ما يحلمون به وما يؤمنون بانتصاره. وهذه الخواطر تحمل المرء على التحرر من التحليلات الوقتية ومن قيود موازين القوى، بل وأيضا من الأثر السيء والمقرف الذي تورث المرء إياه رؤية بعض السحن المتاجرة بالمناسبات كما تتاجر بقوت الناس.. والرافعة عقيرتها بالكلام الكبير وهي لا تتعفف عن تزوير فاتورة صيانة سيارة وزير !!